Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 11, Sep. 2018

Published on Web 01/9/2018

المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، المجلد الثاني ـ العدد الحادي عشر، سبتمبر 2018م

القصيدة السياسية في القرن الأول الهجري بين الموقف الفكري والتشكيل الجمالي
قراءة تأويلية في القصيدة (الهمزية) لعبيد الله بن قيس الرقيات

د. إسماعيل حسين فتاتيت

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين. وبعد ...

تعد هذه الدراسة مقاربة تأويلية للموقف الفكري في النص الشعري السياسي في القرن الأول الهجري ومدى أثره في تشكيل القصيدة جماليا وانفعاليا، وذلك من خلال قصيدة ابن قيس الرقيات (الهمزية) التي نظمها في دعم الحزب الزبيري وحقه في الخلافة.

وتتلخص فكرة البحث في مقاربة الموقف الفكري السياسي وأثره في إبداع النص، من منطلق أنّ الإبداع موقف يتشكل جماليا، وأن جمالية النص إنما تتشكل بفضل ما يحتويه من جمالية الفكر، وأن قمة الجمال الأدبي وروعته إنما تتحقق بمدى انفعال المبدع بموضوعه وصدقه في معالجته، فإيمان المبدع بقضيّته يُعدّ من أساسيات إبداع النص فكريا كما يُعد من أهم مصادر تشكّله الجمالي.

ووفقا لهذا المفهوم كان الاختيار للقصيدة السياسية التي أبدعها ابن قيس الرقيات (كونه أحد شعراء الأحزاب السياسية في القرن الأول الهجري) لمعرفة أثر الفكر السياسي في تشكلها الجمالي. ولكي نصل إلى عمق التجربة التي عاشها ابن قيس الرقيات في المجال الفكري والسياسي ومدى صدقها؛ تم اختيار قصيدته (الهمزية) أنموذجا لدراسة النص السياسي في هذا القرن، فهذه القصيدة تبدو فيها رؤية الشاعر السياسية جلية واضحة عبر اعتناقه لفكرة الأصالة المتمثلة في العودة بالخلافة الإسلامية إلى الحجاز مكانها الأصلي التي انبثقت منه. وقد رأى الشاعر أنّ هذه الرؤية لا يمكن لها أن تتحقق إلا عبر تأييد حزب سياسي يدعو إلى هذه الفكرة ويؤمن بها، فكان تأييده الشديد للحزب الزبيري الداعي لفكرة بقاء الخلافة في قريش والحجاز.

فسعت الدراسة عبر هذا الاتجاه إلى الكشف عن ما يضمره النص من اتجاهات وما تخبئه نفس الشاعر من مواقف وأفكار قد تعجز اللغة الطبيعية عن التعبير عنها فتم اللجوء إلى لغة انفعالية انزياحية بإمكانها التعبير عن المشاعر والأفكار بشكل جلي وبأسلوب جمالي.

كما تسعى الدراسة عبر الوقوف على المستويين الفكري والانفعالي (التركيبي) في القصيدة إلى توضيح مدى قدرة الشاعر واستفادته من هذين المستويين في فرض أيدلوجية نضالية تدعم الحزب الزبيري وحظوظه في الخلافة، وفي الرد على باقي الأيدلوجيات السياسية الأخرى الواقعة في دائرة الصراع السياسي على السلطة والخلافة الإسلامية في القرن الأول الهجري.

2. نشأة الشعر السياسي عند العرب:

لم يكن للعرب في جاهليتهم دولة جامعة يعيشون تحت مظلتها، فيكون لها رأس يأتمرون بأمره ويعيشون في حماه وتحت سلطانه، يؤيدونه إذا أصاب أو يعارضونه إن أخطأ، بحيث تتحقق لهم أحزاب سياسية تطمح في اعتلاء عرش هذه الدولة يوما ما. وإنما كان الأمر على عكس ذلك، فقد كان العربي يعيش تحت مظلة القبيلة الواحدة، تحكمه عادات وتقاليد هذه القبيلة وعلاقاتها بالقبائل الأخرى في أضيق نطاق. "وتلك العلاقات ـ في سلمها وحربها ـ لم تبلغ حد السياسة بمعناها المعروف، إذ لم تكن قد اكتملت للعرب بعد مقومات واضحة للشعب أو الوطن أو الدولة بما يصحب ذلك من خلاف حول مفهوم الحكم أو حدود الوطن أو أمور الشعب أو قضايا القومية؛ لذا ظل الفرد وثيق الارتباط بذلك الكيان الاجتماعي القبلي المستقل"[1]، فلا يحق له معارضة ما ينبثق عنه من عادات وتقاليد فرضها الواقع وأضحت عرفا متبعا. وبالتالي، لم تتهيأ الظروف لنشأة أي حزب سياسي في هذا المجتمع القبلي.

وكذلك كان الحال في عصر النبي (صلى الله عليه وسلم)، وعصر خليفتيه أبي بكر وعمر، من حيث عدم تحقق الأحزاب السياسية، فقد اتفقت دولة الإسلام عليهم والتفت حولهم، فوقف المسلمون جميعا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وصاحبيه في توطيد أركان هذه الدولة، ونشر الدين الإسلامي ومحاربة أعداء هذا الدين دون معارضة أو انشقاق، إذا ما استثنينا الخارجين عن نطاق هذه الدولة. فواقع الدولة في هذه الفترة

يفرض الوفاق واللحمة، حيث تحققت للمسلمين "وحدة سياسية تصرف جهودها لحماية عقيدتها وصيانة حياتها، ولأن الغزوات شغلتهم عن دعاوي الجاهلية، وتعاليم الدين الجديد صاغتهم على الإخاء والمساواة والتعاون والمحبة، ثم إن شخصيّة الرسول غلبت على نزعاتهم ونزواتهم، فاستظلوا جميعا بظله، واقتدوا بأفعاله وأقواله، ووجدوا فيه الأب المحبوب المرهوب الذي يسوي بين بنيه"[2].

ولما عجز أعداء الدين عن محاربة الإسلام جهارا أخذوا يحيكون المؤامرات خفية عبر بث الفتنة بين المسلمين وتشتيت دولة الإسلام، فبعد أن تولى عثمان بن عفان المنتمي للبيت الأموي الخلافة؛ بدأ هؤلاء المتآمرون في بعث النزاع القديم بين بني هاشم وبني أمية، بدعوى أنَّ عثمان يدني لحمته من بني أمية ويفضلهم على من يَفْضلونهم من بني هاشم وغيرهم من المسلمين، فكانت بداية المعارضة لهذا الخليفة بتجمع جمهور من الناس حول بيته محاولين مجابهة آرائه أو إزاحته عن سدة الحكم، ولم يتزحزحوا عن ذلك حتى تمَّ لهم ما أرادوا حين تمكنوا من قتل هذا الخليفة الراشد في بيته وهو يقرأ القرآن.

وبمقتل الخليفة الراشد عثمان بدأت الأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية تتكون وتتبلور، وبدأ الشعر السياسي في الظهور، فـ" الشعر لم يلتزم بالسياسة التزاما حقا إلا بعد مقتل الخليفة عثمان وما أعقبه من فتن وحروب أهلية متصلة انقسم العرب فيها إلى شيع وأحزاب تتنافس على السلطة وتختلف في فهمها لنظام الحكم"[3]، فنشأ الحزب الأموي بزعامة معاوية بن أبي سفيان، الذي عدَّ نفسه وريثا شرعيا لخلافة عثمان، كونه ينتمي إلى البيت الأموي ذاته، واتخذ هذا الحزب مقرا له في الشام. ثم الحزب الشيعي الذي يناصر علي بن أبي طالب وأبناءه ويقدمهم على المسلمين جميعا؛ لقرابتهم من النبي (صلى الله عليه وسلم)، واتخذ كوفة العراق مقرا له. ثم حزب الخوارج الذين تمرَّدوا على علي بن أبي طالب، ورفضوا خلافة معاوية بن أبي سفيان، وأقروا أنَّ الخلافة من حق الأصلح والأتقى من جمهور المسلمين لا فرق بين عربي وأعجمي. وأخيرا الحزب الزبيري المنتمي لعبد الله بن الزبير بن العوام، هذا الشاب الفتي الذي توافرت فيه ـ كما يقول بعض الباحثين ـ العديد من الصفات التي من شأنها أن تؤهله للخلافة[4].

لقد كانت الظروف التي عاشها ابن الزبير تدفع به إلى الطموح دفعا وتقرّب كرسي الخلافة إلى نفسه التوّاقة إليه، فأبوه الزبير واحد من الستة الذين اختارهم عمر لينتخبوا خليفة المسلمين من بينهم، والزبير في الوقت

نفسه ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول. أمَّا عبد الله فأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالته عائشة أم المؤمنين، وهو أول مولود في المدينة في ظل الإسلام بعد زمن بعيد من الهجرة فكان لمولده بشريات سعيدة، وحين شبَّ ولاه عثمان الدار (يوم الدار). ويبدو أن السيدة عائشة نفسها كانت ترمي إلى إسناد الخلافة إليه حين قالت لمروان بن الحكم ذات يوم: فليصل بالناس ابن أختي. وكان معاوية بن أبي سفيان يقدمه ليسكته ويتقي طموحه ومناوأته، فضلا عن أنَّ له أخًا شجاعا يستطيع الاعتماد عليه في مهام الأمور وقيادة الجيوش وتنظيم الملك هو مصعب بن الزبير[5].

وبتكون الحزب الزبيري في منتصف القرن الأول الهجري تكونت أربعة أحزاب سياسية يطمح كل منها إلى تولي الخلافة، ويرى كل منها أنه المؤهل لقيادة الدولة الإسلامية، "أحزاب سياسية أربعة تتناوب أفكار المسلمين وعواطفهم ومجتمعهم، كل حزب يمثّل مبادئ بعينها ومنهجا قائما بذاته"[6]. كما أصبح لكل حزب شعراؤه المدافعون عنه، المنادون بأهدافه، فقد توافر لحزب بني أمية شعراء من مثل الأخطل، وعدي بن الرقاع، ولحزب الشيعة شعراء من مثل الكميت، ولحزب الخوارج شعراء من مثل قطري بن الفجاءة، وللحزب الزبيري شعراء من مثل عبيد الله بن قيس الرقيات الذي تفرغ لآل الزبير ودولتهم.

فالشعر السياسي نشأ مع تكون هذه الأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية، حيث ظهرت حاجة كل حزب لجمع من الشعراء؛ يحققون لهم الدعاية الإعلامية الكافية التي من شأنها أن تعينهم على تحقيق النجاح وإحداث التفوق وتحقيق المراد. ولا غرابة في ذلك، فالأدب العربي ـ كما يرى بعض الباحثين ـ "غلبت عليه السياسة في القرن الأول الهجري؛ لأنه عهد تكوين الدولة في الداخل وبسط نفوذها في الخارج، فكان لابد من مسايرة الأدب لهذه التيارات وتسجيلها، وقد فعل"[7].

ولئن كان هذا التصدع في البيت العربي يعدّ نقمة خطرة على وحدة الأمة الإسلامية، فإنه من جهة أخرى، كان نعمة على الحياة الشعرية في العصر الأموي؛ حيث تنافست الأحزاب في اصطناع الشعراء فأثروا في الشعر العربي تأثيرا كبيرا؛ إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسي.[8]

3. شاعر الحزب الزبيري (عبيد الله بن قيس الرقيات)[9] وقصيدته الهمزية:

يعدّ ابن قيس الرقيات من شعراء الغزل والسياسة، وكان هواه السياسي مع أبناء الزبير الثائرين على بني أمية، فقد كان يحبذ الخلافة الزبيرية بسبب أن مقرها في الحجاز وعاصمتها مكة التي ينتسب إليها الشاعر، كما كان يحبذ ابن الزبير لقرشيّته. لذا كان من الطبيعي أن يدافع عن هذا الحزب ويبشر به ويمدح القائمين عليه، حتى أصبح أهم شاعر اشتهر بزبيريته.

ولم يكن مدحه لآل الزبير وانحيازه إليهم والوقوف معهم في حركتهم السياسية؛ وليد محبة اختصها بهم دون غيرهم، وإنما كان بسبب توافق هواه مع أهوائهم المتمثلة في حبهم لقريش وتفضيلهم مكة والحجاز على الشام والعراق، فلو ظلَّ بنو أمية في الحجاز دون الشام لكان هواه معهم. لذا، نراه يصاحب حركة ابن الزبير على الرغم من بخل صاحبها مصورا انتصاراتها وهزائمها، كما يؤكد عراقة هذه الحركة وانتماءها القرشي واعتدادها بالأماكن المقدسة، مما يضفي على الفكرة العصبية صبغا دينيا، فيصف ابن قيس الرقيات زعيم الحزب الزبيري بأنَّه ابن الحجاز، درج ببطاحه وحول البيت وأركانه، وهو ابن قريش أوفاها حظا من السلطان، وأشرفها نسبا، يقول:[10]

أنت ابن معتلج البطا ح كُدَيّها فَكَدَائِها

فالبيت ذي الأركان فال مستنّ من بطحائها

فمحلّ أعلاها إلى عرفاتها فحِرائها

من سِرّها فيها ومع دن بِرّها ووفائها

أوفى قريش بالعلا في حكمها وقضائها

وأتمَّها نسبا إذا نُسبت إلى آبائها

وهذه الملامح الدينية جعلت بيعة آل الزبير تأخذ طابعا إسلاميا، فبايعهم الناس على الجهاد في سبيل الله تحت إمرة قائد ميمون النقيبة يدعى مصعب بن الزبير، يقول:[11]

على بيعة الإسلام بايعن مصعبا كراديس من خيل وجمعا ضُبارِكا

نفَيْتَ بنصرِ الله عنهم عدوَّهم فأصْبَحْتَ تحمي حوضهم برِماحِكا

تداركتَ منهم عَثْرَةً نَهَكتْ بهم عَدُوَّهُمُ واللهُ أولاكَ ذالكا

واستمر ابن قيس الرقيات في تمجيده لآل الزبير وحزبهم بعقيدة راسخة لا تتبدل ولا تفتر، فحين قتل مصعب رثاه بأبيات أشار فيها إلى قربه من النبي (صلى الله عليه وسلم)، معبرا بذلك عن تمسكه بهذا الحزب والدفاع عنه إلى آخر المطاف، فقد أبى أن يترك مصعبا حين تخلى عنه الناس، وبدت هزيمته تلوح في الأفق وتظهر للعيان، يقول متحدثا عن ظروف قتله:[12]

إنَّ الرزيَّةَ يوم مَسْـ ـكِنَ والمصيبةَ والفجيعهْ

بابن الحواريّ الذي لمْ يعدُهُ أهلُ الوقيعهْ

غدرتْ به مُضَرُ العرا ق وأمكنتْ منه ربيعهْ

ولم يقف ابن قيس الرقيات عند هذا الحد في دفاعاته عن الحزب الزبيري، بل تعدَّى ذلك إلى النيل من أعداء هذا الحزب، فأحدث ما يسمى بـ(الغزل الهجائي)[13]، فنال بذلك من بني أمية أعداء الزبيريين من خلال التغزل بنسائهم، وقد تحقق له ذلك عندما استطاع أن يعبث بعبد الملك وبنيه وأن ينزل بهم الذلة والمهانة، حين تغزل بأم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وزوج الوليد بن عبد الملك، بقوله:[14]

فدع هذا ولكن حا جة قد كنتُ أطلُبُها

إلى أمّ البنين متى يقرّبها مقرّبُها

أتتني في المنام فقلـ ـت: هذا حين أُعْقَبُها

فلما أنْ فرحت بها ومال عليَّ أعذبُها

شربت بريقها حتّى نهِلتُ وبتُّ أُشرِبُها

ولعل المتمعن في هذه الأشعار؛ يلحظ في ثناياها العاطفة الصادقة، وقوة التدفق، وسلاسة الألفاظ، وروعة المعاني، والسبب أنّ قائلها صاحب عقيدة لا طالب مال، فشعره نابع من قوة ميوله لآل الزبير، وقناعته بما يدعون إليه، ولم تكن أشعاره لمجرد التكسب. وهذه الأشعار أشبه بدعاوى خطابيّة لا يسلك الشاعر فيها مسلك البرهنة والاحتجاج، غير أنَّ إخلاصه لفكرته وانفعاله بما يقول، قد أسبغ عليها وعلى القضية التي يؤيّدها لونا من الجاذبية، جديرا باهتمام السامعين وتعاطفهم.[15]

فضلا عن هذه المقطوعات الشعرية، فقد يأتي الرقيات بقصائد كاملة ذات منهج فكري ذي أهداف سياسية جلية، كقصيدته الهمزية[16](محور الدراسة) التي وظف كل أجزائها في خدمة الحزب الزبيري، وتشتمل هذه القصيدة على العديد من الأفكار الهادفة، والأغراض المتعارف عليها بداية من بكاء الديار فالعتاب والفخر والمديح والحماسة. وسُخِّرت جميع هذه الأغراض في خدمة قضية واحدة هي نصرة الحزب الزبيري، وهدف واحد هو دعم البيت القرشي والعرق المضري.

4. الموقف الفكري في القصيدة:

أقام الشاعر قصيدته على فكرة الإشادة بالحزب الزبيري وتأييده والشَّد من أزره في مواجهة أعدائه الممثلين للأحزاب السياسية الأخرى المعاصرة له، خاصة الحزب الأموي المعادي للحجاز والقرشيين. فقيام دولة

الزبيريين في الحجاز "لم تكن تمثل مجرد طموح شخصي وتطلع إلى الحكم عند الزبيريين، بل كانت في حقيقتها تطلعا من القرشيين وأهل الحجاز عامة لكي يستعيدوا ما سلبهم الأمويون من سلطان بانتقالهم إلى الشام واستئثارهم بالسلطة واستعانتهم بالقبائل اليمنية، وإذكاء روح العصبية بين سائر القبائل"[17].

وقد اعتمد ابن قيس الرقيات في انتصاره للحزب الزبيري في هذه القصيدة على مجموعة من العناصر تم تسخيرها لدعم مبادئه النضالية في المجال السياسي تمثلت في الآتي:

ـ المقدمة الطللية التي بكى فيها الديار والأماكن المقدسة المقفرة من بني عبد شمس الجد الذي ينتمي إليه البيت الأموي الذين طالما رآهم يغدون في المواسم متحلِّين بألمع الصفات الحميدة، لكنهم اليوم نازحون خارج ديارهم، محرومون من هذه الأماكن المقدسة، يقول في مطلع القصيدة:

أقفرتْ بعد عبد شمــس كَداءُ ** فكُدَيُّ فالركن فالبطـحاءُ

فمِنًى فالجِمارُ من عبد شمس ** مُقفِــراتٌ فبَلْــدَحٌ فحِـراءُ

ولا يخفى تمسك ابن قيس الرقيات بتقاليد الشعراء في بناء قصائدهم، فابتدأ بمقدمة طللية في عتاب بني عبد شمس استهلها بالبكاء على الديار المقفرة منهم، حيث عدّد فيها الأماكن الخالية منهم، وصوَر

من خلالها الجو المشحون بالحزن والأسى على فرقة قريش وانقسام أهلها شيعا.

وعندما يذكر ابن قيس الرقيات الديار ويبكي الأطلال لا يجاري عادة الشعراء والنظام المتبع في القصيدة العربية فحسب؛ وإنما يوظف ذلك أيضا في تحقيق مطامح سياسية، فالمواطن التي يبكيها جميعها مواطن حجازية، والحجاز حينئذ كان في قبضة الزبيريين، وليس من المعقول أن يبكي الشاعر إقفار هذه المواطن من بني أمية، وهو عدوهم ونصير الزبيريين أعدائهم، فللبكاء هنا مظهر آخر يقصد من ورائه حث القرشيين وأهل الحجاز على الالتفاف حول آل الزبير فقد تخلى بنو أمية عنهم مفضلين غيرهم عليهم على الرغم مما كانوا عليه من سيادة وزعامة.

ـ من العناصر التي سخرها الشاعر أيضا لدعم موقفه الفكري: النيل من بني أمية عبر التغزل بنسائهم قصد إغاظتهم، حيث يقول:

وحِسانٌ مِثْل الدُّمى عَبْشَمِيًّا ** تٌ عليهِنَّ بهجةٌ وحياءُ
لا يَبِعن العِيَابَ في موسم النا ** س إذا طاف بالعياب النِّساءُ
ظاهراتُ الجمال والسَّرْوِ ينظُرْ ** ن كما ينظرُ الأراكَ الظِّباءُ

فنساء عبد شمس ظاهرات الجمال، حسان مثل الدمى، ينظرن إلى ما حولهن كما ينظر الظباء إلى الأراك، حيث تحول الغزل هنا من مجرد ذكر لمحاسن النساء إلى غزل موظف، يتخذ فيه الشاعر "النساء وسيلة إلى حرب الرجال، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهنَّ أو يذيع بينهن الفاحشة كذبا وزورا؛ بل كان يمضي إلى أبعد من هذا، كان يريد أن يتملق هؤلاء النساء وأن يرضيهنَّ عن نفسه، وأن يحبب إليهن هذا الغزل الهجائي الذي كان يسوء أزواجهن وأبنائهن وعصبتهنّ بوجه عام"[18].

ـ ومن العناصر التي تم تسخيرها أيضا: النيل من الأمويين أعداء الشاعر وآل الزبير عبر التعريض برأسهم الحاكم (عبد الملك بن مروان) وسياسته من خلال مدحه لمصعب بن الزبير ونعته بأرقى أنواع المديح وأشرفه،[19] وفي ذلك يقول:

إنما مصعب شهاب من الل ** ه تجلَّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه ** جبروت ولا به كبرياء
يتَّقي الله في الأمور وقد أف ** لح من كان همّه الاتقاءُ

فقد ذكر أنَّ الله فضل مصعبا على عامة الناس، ووصفه بأنه شهاب من الله تجلت في وجهه الظلماء، وأن ملكه خال من الجبروت والكبرياء، وأنه يتقي الله في جميع أموره، فهو بذلك ليس كغيره من الملوك الجبابرة من أمثال (عبد الملك بن مروان) رأس بني أمية.

ـ ومن العناصر أيضا: اللعب على الوتر الوطني والحاضنة الاجتماعية الأولى المتمثلة في (قريش) والانتصار لها والتوجع لما أصابها من فرقة وهوان، وفي الرفع من شأن مكة والحجاز، وكأن الافتخار بقريش هو الغرض الأسمى من القصيدة، وأنَّ ما عداها من الأفكار إنما أتى بها دعما لهذا الغرض، لذلك عندما عزت قريش في ظل الزبيريين خصّهم الشاعر بقصائده ومدائحه، وعندما تخلى الأمويون عن قرشيتهم كانوا محط هجوم الشاعر وعدائه. فقد عزَّ على الشاعر أن يرى قريشا تفرقها الأهواء، ويكسر شوكتها الأعداء، بعد أن كانت

مهابة الجانب عزيزة المنال. وهو بذلك يشير إلى أثر الحزب الزبيري في انتصاره لقريش، فقد سار الزبيريون على نهج الأوائل الذين اعتزوا بأصولهم المضرية ولم يتخلوا عن قريش وأمجادها، فدافعوا عنها وحافظوا على حرماتها، وفي ذلك تعريض بالحزب الأموي المتخلي عن أصله القرشي، المتكئ على أكتاف اليمنية، فلا قيمة لقرشي خارج ديار الحجاز، فالخلافة في قريش وفي أرض الحجاز بين أنصارها من المهاجرين والأنصار وأبنائهم. وكانت حجة الشاعر تتلخص في أنَّ قريشا قبيلة الخلافة، وأن العرب لا يصطلحون إلا عليها، فنراه يقول:

حبَّذا العيشُ حين قومي جميعٌ ** لم تُفرِّق أمورها الأهـــواءُ

قبل أنْ تطمع القبائل فـــي مُلـ ** ـك قريش وتشمت الأعداءُ

ومن تم، تبلورت فكرة القصيدة من هذه الجهة في الدفاع عن قريش وعظمتها عبر مدح مواطنيها وتعظيم أنصارها والنيل من أعدائها، فقد حقق الشاعر من خلال فكرة الالتفاف حول قريش وتمجيدها، كسبا سياسيا مهما يؤكد من خلاله تأييده للحزب الزبيري الذي يتخذ من مكة والحجاز مقرا له، فتقديس قريش والرفع من شأنها يعد في حقيقة الأمر دعما واقعيا لأحقية ابن الزبير في الخلافة، فالشاعر يدرك أن تحقيق هذا الدعم لا يتأتى إلا عبر الارتقاء بابن الزبير إلى مستوى مكانة زعماء الشيعة وزعماء بني أمية، بل والتفوق عليهم عبر ما يمتاز به عنهم من كونه الخليفة العائذ بمكة والقابع في الحجاز واللائذ بالقرشيين والمستنصر بالمضريين، وهو ما يؤهله للخلافة دونهم. فالقصيدة من هذا الجانب، تسجل عقيدة الزبيريين الأساسية، وما تقضي به من ضرورة كون الخلافة في قريش فهي عز العرب وهي عماد الخلافة، فإذا ما زالت عنها سقط ركنها سقوطا لا ترتفع بعده[20]، وهو ما يؤكده الرقيات في قوله:

إن تودِّع من البلاد قريـــشٌ ** لا يكن بعدهم لحـــــيٍّ بقاءُ

لوْ تُقفَّى وتتركُ الناسَ كانوا ** غنمَ الذِّئبِ غاب عنها الرِّعاءُ

فانتصار الحزب الزبيري هو في حقيقته انتصار لقريش والحجاز، وكان لهزيمته مغزاها السياسي أيضا، فإنها ليست هزيمة شخص أو حزب ولكنها هزيمة ذلك الإقليم. فبعد أن كانت قريش مجتمعة تحت راية واحدة، فرقت رايتها الأهواء حيث اعتزلت بنو عبد شمس واختارت أن تكون بعيدة عن قريش وأماكنها

المقدسة، بعد أن طمعت في الخلافة وسيادة الأمة بواسطة القبائل اليمنية في الشام. وبالتالي يختم الشاعر قصيدته بتهديد شديد اللهجة يوجهه إلى بني أمية عبر الدعوة إلى قتال الشاميين؛ لأنهم كانوا السبب في تحطيم وحدة قريش والحجازيين، وذلك حين يقول:

كيف نومي على الفراش ولمَّا ** تشملِ الشام غارة شعواءُ

تُذهِلُ الشَّيخ عن بنيه وتُبـدي ** عن بُراها العقيلةُ العَذْراءُ

فقد أراد الشاعر أن تكون قريش وحدة واحدة بجميع بطونها وأحيائها فلا يرضيه تفرقها، لذلك نراه يبكي قريشا، وما حلّ بها من فرقة ودمار بعد أن طمعت القبائل في ملكها وشمت بها الأعداء، وهو بذلك يخالف ما عليه الشيعة فقد "كان حزنه على قومه وعصبته العامة، وكان حزنهم على أنفسهم وعصبتهم الخاصة، كان قرشيا وكانوا هاشميين"(21).

كما نراه يذكرنا بأمجاد قريش ومكانتها بين القبائل، فيفتخر برجالها البواسل في الجاهلية والإسلام، ولم يفرق الشاعر بين أحياء قريش فذكر أشراف بني هاشم وغيرهم من أحياء مكة، حيث يقول:

نحن منَّا النبيُّ الامّيُّ والصـدْ ** دِيق منا التَّقـيُّ والخلفـاءُ

وقتيل الأحزاب حمـزة منّـا ** أسـد الله والسَّنـاء سنـاءُ

وعليٌّ وجعـفرٌ ذو الجـناحي ** ـن هنـاك الوصيُّ والشهداءُ

ونراه يقول أيضا مفتخرا ببعض رجالات قريش، فيقول:

ورجالٌ لو شِئتَ سمَّيْتَهـم منْا ** نَا ومنَّا القُضـاة والعلمـاءُ

منهُمُ ذو النّدى سهيل بن عمرو ** عِصمةُ الجار حين حُبَّ الوفاءُ

ـ كذلك استطاع الشاعر أن يسند الحزب الزبيري من خلال محاربة الآثمين الملحدين من الخوارج أعداء الدين الذين طمعوا في الخلافة وحاولوا أن يختطفوها من قريش ويجهضوا حقهم فيها، من أمثال (ابن دومة) الكذاب، فقد حارب مصعب بن الزبير هذا الخارجي الدعي وقضى عليه وعلى دولته المارقة فأراح المسلمين من شروره، يقول ابن قيس الرقيات في هذا الشأن:

والذي نَغَّص ابنَ دومةَ ما تو ** حي الشياطينُ والسيوفُ ظِمـاءُ

فأباح العراقَ يضربهـــم بالسْـ ** ـسَيف صلتا وفي الضِرابِ غِلاءُ

فالشاعر هنا نراه يعزف على وتر محاربة الضلالة المتمثلة في الزنادقة والمفسدين، فيعزز بذلك صف الزبيريين بذكر محاربة مثل هؤلاء المفسدين الخارجين عن الملة الإسلامية فهو الحزب الذي عزت بملكه قريش وخلّص العقيدة من شوائبها، فعلى العرب والمسلمين جميعا أن يلتفوا حوله وينصروه.

ـ من العناصر التي سخرها الشاعر أيضا: اللعب على وتر الحاضنة الدينية المتمثلة في بكاء الأماكن المقدسة، وأيضا في العاطفة الروحانية التي يكنها المسلمون لآل النبي (صلى الله عليه وسلم)، بغية تأجيج الشارع الإسلامي على حكم بني أمية، فقد أقحم الأماكن المقدسة الحجازية أيضا داخل اللعبة السياسية، فهو يقول:

ليس لله حرمةٌ مثلُ بيـــت ** نحن حُجَّابُـهُ عليه المُــلاءُ

خصَّه الله بالكرامة فالبـا ** دون والعاكِفـون فيه ســـواءُ

حرَّقتهُ رِجالُ لخْـمٍ وعـكٍّ ** وجُـــذامٌ وحِميَـرٌ وصُـــداءُ

فبنيناه من بعد ما حرَّقوهُ ** فاستوى السَّمكُ واستقلَّ البناءُ

فذكر أن بيت الله الحرام الذي خصَّه الله بالكرامة، فالناس من باد وعاكف كلهم فيه سواء؛ قد حرقته رجال لخم وعك وجذام وحمير وصُداء، أنصار بني أمية، هدما وتحريقا ولم ترع ذمامه. وذكر أنَّ الزبيريين بأيد قرشية قد أعادوا ما تهدَّم منه؛ لأنهم هم الذين يعرفون حق حرمته، مما يضفي على الفكرة العصبية صبغا دينيا، يدعم الحزب الزبيري ويزيد من سطوته وأحقِّيَّته في الخلافة.

كما نراه يختم قصيدته بذكر فاجعة (كربلاء)، ومقتل الحسين وأهله على أيدي الأمويين، حاثا جمهور المسلمين على معاداة بني أمية لارتكابهم مثل هذا الجرم الشنيع الذي تعرض له الحسين بن علي سبط النبي (صلى الله عليه وسلم)، وما أصاب أهل بيته من ألم، فيقول:

أنا منكم بني أميـــــة مزورٌّ ** وأنتم في نفســـي الأعداء

إنَّ قتلى بالطَّفِّ قد أو جعتني ** كان منكم لئن قُتلتم شفاء

فالشاعر وإن اتسم شعره السياسي بالولاء المطلق لآل الزبير؛ إلا أنَّه هنا أراد أن يحقق ولاء آخر لآل البيت كان قائما على أساس العاطفة الإنسانية. وهو بذلك يحقق كسبا سياسيا عبر استعطافه قلوب المسلمين جميعا بمختلف توجهاتهم، فيدنيهم من الحزب الزبيري ويحببهم فيه، كما يبعدهم من الحزب الأموي ويبغّضهم فيه. فقد كان ضروريا ـ والمصالح الحزبية تحتك وتتصادم ـ أن يعنى الشاعر بالحملة على خصوم الدعوة الزبيرية، وإثارة الأحقاد ضدهم، وتهديدهم بالويل والثبور على ما ارتكبوا من الشرور، كتسببهم في قتل الحسين في (كربلاء)، وهو أمر استخدمته دعوة الزبيريين في بداية قيام حكمهم، فضربوا على نغمة الحزن على الحسين والتشهير ببني أمية[22].

وأخيرا، فإن ابن قيس الرقيات يسعى عبر منهجه السياسي إلى تكثيف الدواعي التي من شأنها أن تدعم الحزب الزبيري الساعي لنيل الخلافة والعودة بها إلى مهدها الأول في الحجاز تحت رعاية قرشية بأيد مضرية، وليس بأيدي قبائل الشام اليمنية التي كرَّست السلطان بعيدا عن الحجاز. فإنّ هذا الحزب لم يكن يمثل مجرد طموح شخصي، بل كان في حقيقته تطلعا من القرشيين وأهل الحجاز عامة؛ لكي يستعيدوا ما سلبهم الأمويون الذين تنكروا لقرشيّتهم وإقليمهم بانتقالهم إلى الشام.

5. التشكيل الجمالي في القصيدة:

بما أن لغة الشعر لغة انفعالية بطبيعتها، لها علاقة وطيدة بتوتر الشاعر وعواطفه المتباينة؛ فهي بالتالي لغة انزياحية يعتريها الهدم والبناء باستمرار حسب انفعالية الشاعر، "ومن هنا يختلف منطق لغة الشعر عن منطق لغة النحو، فالأولى وثيقة الصلة بالانفعال وهي صورته، والأخرى وثيقة الصلة بالفكر وهي ربيبته، ولما كان الشاعر يودّ الإبانة عن داخله الانفعالي ورؤاه الوجودية الخاصة، فلا مناص أمامه إلا أن يحدث هدما في منطق اللغة ليقيم من جديد بناء جديدا له نسقه وتركيبه اللغوي الخاص"[23].

ووفقا لهذا الطرح يتم معالجة القصيدة بعد تجزئتها إلى مجموعة من المشاهد المتقاربة الأفكار المتباينة المشاعر، وقد تناولها الشاعر بلغة انفعالية متفاوتة حسب تداعي التوتر والهدوء داخل القصيدة، إذ كلما ازداد التوتر والانفعال ازدادت اللغة هدما وانزياحا، وكلما هدأ التوتر والانفعال خف الانزياح والهدم. ولا يمكن التعرف

على هذه الانفعالات المتكررة في القصيدة أو تصورها إلا من خلال هذه اللغة الانزياحية، المعقدة التركيب بسبب تعلّقها بجوانب متعددة، نفسية واجتماعية وفكرية.

فالشاعر يبدأ بناء قصيدته متكئا على التراث تارة والواقع تارة أخرى عبر الموازنة بين الماضي المشرق والحاضر المظلم. ولا يخفى من خلال دراسة التراكيب فيهما أن الانزياح يقل مع انسجام نفسية الشاعر في الزمن الماضي، ويزداد بتوترها في الزمن الحاضر، فهو عندما يذكر ديار قريش المقفرات بعد الفرقة؛ نلحظ أن التراكيب اعتراها شيء من الارتباك والتوتر نتيجة لتوتر الشاعر وانفعاله خاصة عند ذكر بني عبد شمس، فقد ارتبكت مشاعره إزاء هؤلاء القوم، فمن جهةٍ هم جزء من قريش يسعد الشاعر بوجودهم مع باقي البطون القرشية، ومن جهة ثانية هم يمثلون الحزب المعادي للحزب الزبيري المنتمي إليه الشاعر، فنتج عن هذه الربكة ربكة في التراكيب أيضا، مثلما جاء في قوله:

أقفرت بعد عبد شمس كداء ** فكديّ فالركن فالبطحاء

فمنى فالجمار من عبد شمس ** مقفرات فبلدح فحراء

حيث يبتدئ الشاعر مطلع قصيدته بـ(أقفرت)، وهي كلمة توحي بالأسى والحزن والخراب، مخالفا ما عليه الشعراء في مطالع قصائدهم، وهذا يدل على شدة انفعاله على ما حلّ بديار قومه، فالموقف لا يحتمل بداية مشرقة أو متفائلة، بالتالي، أغنت هذه الكلمة المعبأة بالإيحاءات بصورتها الثانية (مقفرات) عن ذكر عدد من (الأخبار) قبلها، اعتمادا على ذكاء المتلقي وقراءته الجيدة لمعطيات السياق، يقول:

أقفرت بعد عبد شمس كـــداء ** فكديّ ... فالركن ... فالبطحاء ...

فمِنى ... فالجمار ... من عبد شمس ** (مُقفـــرات) .....

فتكرار الحذف هنا يصنع الإيحاء، ويبث النشاط في المتلقي فيظهر دوره بوضوح، لأن إشراكه في الإنتاج الدلالي يتيح له أن يتدخَّل في إحضار الغائب اعتمادا على السياق والقرائن. فجاء تكرار هذا الحذف نتيجة لانفعال حادٍّ وعاطفة متوترة أدت إلى خلق لغة انزياحية بديلة عن اللغة الشائعة، وهي ما يسميها النقاد بلغة الشعر[24].

وقد أوحى الشاعر عبر التقنيتين (الذكر والحذف/ التقديم والتأخير)؛ بمكانة بني عبد شمس ومنعتهم في قريش، حيث حذف المضاف واستغنى بالمضاف إليه في قوله: (بعد عبد شمس) تعظيما لشأنهم، ولو قال: بني عبد شمس؛ لأوحى بالقلة أو ربما بشيء من التحقير وهو ما لم يرده الشاعر.

ولقدسية هذه المكانة نراه يخترق تراتبية البناء النحوي مرتين محققا بذلك غرضا بلاغيا اقتضاه السياق، عبر تقديم عبد شمس مرة في البيت الأول على الفاعل، وأخرى في البيت الثاني على الخبر، لانشغال عقل الشاعر وفؤاده بهؤلاء القوم من قريش، فمثل هذا التقديم من شأنه أن يمنح المبدع طاقة تعبيرية لتنظيم انفعالاته وترتيب رغباته، فيقدّم ما يطفو على سطح وجدانه وفكره، ويؤخّر ما يترسب في أعماقه[25]، فـ"الإثارة الذهنية التي تنحرف عن المعتاد القياسي في حياتنا الذهنية لا بد أن يكون لها انحراف لغوي مرافق للاستعمال العادي، فلو لم يختلف المعنى لم تختلف الصيغة"[26]، ونقل الكلمة من الخلف إلى الأمام أو العكس؛ هو الذي يخرج اللغة من طابعها النفعي إلى الإبداعي.

حتى إذا ما تذكر الشاعر نساء بني عبد شمس وهن يتجولن في أحياء مكة في عزة وبهاء؛ أخذت التراكيب نوعا من الاستقرار بمجيئها وفق القانون النحوي، كقوله واصفا هؤلاء النسوة:

وحسان مثل الدمى عبشمـــيا ** ت عليهــن بهجــة وحيـــاء

لا يبعن العياب في موسم النا ** س إذا طاف بالعياب النساء

فقد صاغ الشاعر البيتين على طبيعتهما النحوية، وما نلحظه من تقديم شبه الجملة على الفاعل في آخر البيت الثاني؛ إنما جاء لغرض استواء الوزن والقافية، "فنحن لا نهتم بالتقديم إلا حينما يتعلق به غرض فني يوحي به السياق، ويتعلق بطبيعة التجربة التي يعانيها الشاعر"[27].

فإذا انتقل الشاعر إلى حاضر قريش اعتصره الحزن، وأشابت رأسه النكبات، واعتراه القلق والتوتر، فكان نتيجة ذلك أن أصاب التراكيب شيئا من الانزياح وفقا لما اقتضاه انفعال الشاعر، وهنا تكمن القيمة الفنية للانزياح حيث تم توظيفه في التعبير عن سلوك إنساني لا يمكن أن يتضح إلا من خلاله، كقوله:

أيّها المشتهي فنـــاء قريـــش ** بيـــــد الله عمـــرها والفنـــاء

إن تودّع من البـــلاد قريـــش ** لا يكـــن بعدهـــم لحـيٍّ بقـاء

لو تُقفَّى وتترك الناسَ كانـــوا ** غنم الذئب غاب عنها الرعاء

هل ترى من مخلّد غير أنَّ الـ ** له يبقـــــى وتذهـــب الأشيـاء

نلاحظ إصابة الشاعر بالحزن والتوتر عند ذكره لواقعه المعيش، من خلال ما أصاب بناءه الشعري من قلق وارتباك نتيجة للحذف والتقديم والتأخير، حيث ابتدأ باستعمال أداة النداء المخصصة لنداء القريب (أي)، مستعملا إياها في غير ما وضعت له، وكأن المنادى الذي قصده الشاعر قابع بجنبه يحادثه وجها لوجه، وإنما فعل هذا لأمر اقتضاه السياق، فليس القرب والبعد معيارين ثابتين في أسلوب النداء، فقد يُنادى القريب بأدوات نداء للبعيد، وقد يُنادى البعيد بأدوات نداء للقريب، لأغراض بلاغية،[28] وليس كما جاء واتفق، فهذا الوعيد الذي صبّه الشاعر على هذا المشتهي لزوال الخلافة عن الحجاز؛ هو الذي نزله منزلة القريب؛ لذا عبر بالصفة (المشتهي) مستغنيا بذكرها عن ذكر الموصوف؛ لأن مشتهي الشيء عادة يكون قريبا منه متحفزا للانقضاض عليه، وهو مراد الشاعر.

وقد أراد أن يؤكد لهذا الحاقد أنَّ فناء قريش ليس بيده وإنما بيد الله وحده، ولهذا قدم شبه الجملة (بيد الله) على المبتدأ (عمرها)، وأراد كذلك التأكيد على أنَّ بقاء قريش هو بقاء للعباد جميعا، مستعينا على تأكيد هذه الفكرة بما أحدثه من تقديم وتأخير وحذف، مقررا أنَّ فناء قريش إن حصل ليس بالغريب إذ جميع الأشياء تفنى وتذهب ويبقى الله وحده في الوجود، فاشتهاء هذا الحاقد البعيد القريب فناء قريش أوصل الشاعر إلى حالة من الانفعالية أجبرته على أن يجتاح التراكيب النحوية المألوفة بأخرى بلاغية أبدعت المعنى الذي أراده، كتقديم (شبه الجملة) المتكرر. وكوقوع الحذف في جملتين في قوله:

(غير أن الـ ** له يبقى ..... وتذهب الأشياء .....)

وعندما يرجع بنا الشاعر إلى الذاكرة بداية من الأماكن العامرة، إلى ذكر أعلام قريش وآثارهم الخالدة، إلى بعض الوقائع الحزينة كواقعة (كربلاء)؛ إنما يتخذ من رجوعه هذا متكأ نفسيا يطمئن إليه في ظل ما يكابده من ألم وضياع نتيجة لواقعه المشتت، كما يشعر هذا الرجوع باحتواء القصيدة لموقف فكري عبر تحميل بني أمية مسؤولية تشتت قريش وتفرقها، وهو ما استشعرناه من تراكيب أبيات القصيدة، إذ "القصيدة الجيّدة تحتمل أكثر من وجه وعلينا أن نبحث خلف المظهر اللغوي، وما يموج وراءه من تيارات ذات دلالات

أخرى"[29]، تحدث الأثر في المتلقين مما يكسبه وظيفة اجتماعية. فالشاعر لا يستطيع الإفصاح عن شعوره إلا عبر تركيب الكلمات تركيبا انفعاليا يفسح المجال لإظهار هذا الشعور. ومما يؤكد هذه الفرضية أن الانزياح يقل كلما ارتاحت نفسية الشاعر، ويشتد كلما ازداد ألمه، فهو عندما يلجأ إلى التراث وما يمثله من عظمة؛ يجيئنا بأسلوب تغلب عليه اللغة النفعية، بداية من ذكره للنبي (صلى الله عليه وسلم)، ثم الخلفاء، فالشهداء، فالعلماء، فالنبلاء، كل ذلك مرَّ دون هدم أو إعادة بناء، في حين نراه عندما يذكر شخصية من حاضره يتوقف عندها كثيرا بانفعال شديد، لما تمثله هذه الشخصية من أهمية للمسلمين، وللحزب الزبيري الذي ينتمي إليه الشاعر، كما في قوله مادحا مصعب بن الزبير:

والذي نغَّص ابن دومة ما تو ** حي الشياطين والسيوف ظمـــاء
فأباح العراق يضربهـم بالســـ ** سيف صلتا وفي الضراب غِلاء
غُيِّبوا عن مواطـن مُفظعـــات ** ليس فيـــها إلا السيـــوف رخاء
فسعوا كي يفللـوك ويأبـــى الـ ** لـــــه إلا الذي يـــــرى ويشـاء
حســـدا إذ رأوك فضَّـــلك اللـ ** ـه بـما فُضلـــت به النُّجبـــاء
فعلى هديهم خرجت وما طبْ ** بُـــك في الله إذ خرجـــت الرياء
إن تعش لا نزَلْ بخير وإن تمـ ** لكْ نزُلْ مـــثل ما يزول العمـــاء
إنما مصعب شهـاب من اللـ ** ـه تجلَّـت عن وجهـــه الظلمـــاء
ملكه ملـــك قـــوة ليس فيـــه ** جبـــروت ولا بـــــه كبريـــــاء
يتَّقي الله في الأمور وقـــد أفـ ** لـــح من كان همّه الاتقـــــاءُ

إن توقف الشاعر عند قائد الزبيريين مصعب بن الزبير لأكثر من عشرة أبيات يوحي بمدى عمق العاطفة الصادقة التي يكنها الشاعر لهذا القائد، إذ لم يكن باستطاعته الانتقال إلى معنى آخر حتى يفرغ ما بجعبته من مشاعر إكبار يمتلئ بها قلبه ناحيته عبْر هذه الأبيات المليئة بالتوتر والانفعال، وقد تم ملاحظة ذلك أكثر من خلال ما حصل في بعض التراكيب من انزياح أسهم في الإيحاء بما يضمره الشاعر من أحاسيس تعبر عن حقيقة مشاعره. فالانزياح له أثر واضح في جعل اللغة الشعرية ذات وظيفة إيحائية[30]. فابن قيس

الرقيات بداية لم يصرح باسم ممدوحه إلا بعد مضي سبعة أبيات؛ ليشد انتباه المتلقي لما يتحلى به هذا الممدوح من صفات عظيمة تصلح للرئاسة والزعامة، فقد حذف الموصوف (مصعب) وتعمق في الصفة التي توضح حقيقته كاملة للناس قبل معرفة من هو، فالأدب الجيد ليس بثا مباشرا أو إفضاء صريحا بالمعنى الكامن فيه، ولكنه لون من التظليل والغموض الذي يثير ذهن المتلقي ويحرك خياله، فهو لا يعطي مضمونه إلا بعد تسويف ومماطلة، وهو بذلك يحقق المتعة الفنية للمتلقي، إذ إنه ينقله من سلبية الأخذ والتلقي إلى إيجابية الحدس والتخيل[31]. وحتى يتمم الشاعر صفات ممدوحه استعان على ذلك بأسلوب الانزياح، محققا العديد من الفوائد كالمبالغة ورعاية الإيقاع والإيجاز. فقام أولا بحذف الموصوف تعظيما له، أو حرصا منه على العامل الزمني، فالموقف أو المقام يتطلّب السرعة في الكلام خشية فوات صفة من صفات الموصوف. مكتفيا بالإخبار عنه بالجملة الفعلية، والتقدير (و ... الذي نغص ابن دومة)، أي: مصعب، فإنَّ قيمة الانزياح متأتية "من أن ثمّة تركيبا يحمل من الفاعلية والتأثير والدلالات ما لا يحمله تركيب آخر، إذا ما كان أحدهما قريبا من المعيار أكثر من الآخر، وكلما ابتعد التركيب عن المعيار حقق شعرية أوسع"[32]. ثم قام بحذف المضاف في عدة مواقع منها: (والذي نغص ... ابن دومة)، أي: حياة ابن دومة. ومنها: (فأباح ... العراق)، أي: أرض العراق. ولا يخفى ما في هذا الحذف من تحقيق للمبالغة التي أرادها الشاعر لمعنى الفعلين: التنغيص، والإباحة، عبر إسنادهما للمضاف إليه عوضا عن المضاف. ومنها: (ليس فيه ** جبروت، ولا به كبرياء)، أي: ليس في ملكه جبروت، ولا بملكه كبرياء. ومنها: (يتقي الله في ... الأمور) أي: في كل الأمور. وتحقيقا للمبالغة أيضا تم حذف الفاعل وكذلك المضاف إليه في قوله: (غُيِّبوا عن مواطن مفظعات)، أي: غيبتهم (الأحداث) عن مواطن (حرب) مفظعات، ليوحي بقوة الممدوح وبسالة جنده الزبيريين وصمودهم في المواقع القتالية التي يغيب عنها بنو أمية، وهو ما ينبغي للمتلقي ملاحظته والاشتراك في تأويله، ومن هنا يصبح الحذف "عنصرا حافزا للمتلقي لكي يحضر في الخطاب، ويسهم في استدراج المحذوف وتقديره، والدخول فيه."[33] فهو بالتالي، يُعدَّ عنصرا مهما في تحقق الشعرية. أما حذف الحال في قوله: (فسعوا ... كي يفللوك)، أي: فسعوا جاهدين، أو حريصين، أو متعمدين، فقد جاء للإطلاق كي يعطي مجالا أكبر للمتلقي في التأويل مما من شأنه أن يزيد في تهويل السعاية، إذ كلما كان

إدراك المحذوف أعسر كان الالتذاذ به أحسن. ومثله أيضا تم حذف الجار والمجرور، في قوله: (إن تعش لا نزل بخير وإن تهـ ** لك نزل...)، أي: وإن تهلك نزل عن الحجاز أو عن أرض العرب أو عن الدنيا أو عن كبريائنا، فالشاعر ترك الأمر على إطلاقه ليمد في خيال المتلقي في تصور عظمة هذا القائد الزبيري الذي بهلاكه تتفرق الجموع وتدمَّر البلدان.

وقد يحدث الانزياح في نهاية الأبيات مما يزيد في ترسيخ المعنى في ذهن المتلقي ويوحي بمدى تأييد الشاعر لأحقية الحزب الزبيري، فضلا عن ما يحققه من إيجاز ومن محافظة على الإيقاع من حيث صحة الوزن وسلامة القافية، كما في حذف المفعول به الضمير المتصل بالفعل في قوله: (ويأبى الـ ** له إلا الذي يرى ... ويشاء ...)، أي: يراه الله ويشاؤه. فضلا عن ما يحققه مثل هذا الحذف من أغراض أخرى لا تتحقق بدونه، وهو ما أشار إليه الجرجاني: "أنَّك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلاَّ لأنَّ في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأنَّ الغرض لا يصح إلاَّ على تركه"[34]. كذلك تقديم شبه الجملة في العديد من الأبيات كقوله: (وفي الضراب غلاء/ به النّجباء/ عن وجهه الظلماء/ ولا به كبرياء). كما يحقق الشاعر غرضا بلاغيا مفاده تقديم الأهم والأجدر بالعناية.

وإذا كان مطلع القصيدة يوحي بشيء من الارتياح والهدوء وبعض المودة لبني أمية، فإن ختامها يوحي بعكس ذلك لما تحمله من مشاعر البغض والحقد التي صرح بها الشاعر ناحيتهم وما حملته هذه المشاعر من انفعالات أوقد شعلتها ما أحدثه الأمويون وأهل الشام من كوارث ونكبات، يقول:

عَيْنِ فابكي على قريش وهل يرـ ** جع ما فات إن بكيت البكاء
معشرٌ حتفهُم سيوف بنـي العلْ ** لَات يخشَوْن أن يَضيع الِّلواء
ترك الرَّأسَ كالثغامـة منـــي ** نكبات تسري بـها الأنبـاء
مثل وقع القدوم حـلَّ بنا فالنْ ** نَاس مما أصـابنا أخـلاء

فالشاعر بعد أن ارتدَّ إلى الماضي الجميل وما يحمله من ذكريات سامية، تمثلت في عظمة الكثير من الشخصيات المثيرة التي أنجبتها قريش، هذه الشخصيات التي استحوذت على أماكن كبيرة من قصيدة الشاعر توحي بمدى تألم الشاعر وحزنه على ضياع هذا التاريخ العظيم، بسبب هذه الصراعات الداخلية

على تولي الخلافة، حتى إذا ما انتبه الشاعر عبر صدمة الواقع المرير، أدرك أن السبب في هذه الكوارث هم من فرق أمر القرشيين، وخرج بالخلافة إلى بلاد غير التي نشأت فيها، إنّهم بنو أمية، فصب جام غضبه وسخطه على هؤلاء الذين أرادوا بأهل الحجاز شرا، كما رفع من شأن آل الزبير الذين أرادوا بقاء الخلافة في أرضها، فتضاربت في نفس الشاعر الانفعالات الحاقدة والمؤيدة، فخرج لنا بأبيات يعتريها الانزياح والعدول بدرجات متفاوتة. حيث نجده في البيتين الأولين يعتمد على حذف المبتدأ في قوله: (... معشر حتفهم)، أي: هم معشر، وأيضا على حذف المفعول به شبه الجملة في قوله: (أن يضيع اللواء ...)، أي: من أيديهم، مع ما حققه عبر لفظة: (اللواء) من دلالة رمزية، فالشاعر لا يقصد المعنى المعجمي للواء(العَلَم)، وإنما أراد أن يخرج بهذه الكلمة إلى دلالة رمزية متمثلة في ضَياع الدولة الإسلامية بأكملها. ثم اعتمد على التقديم والتأخير في نهاية البيت الأول محدثا نسقا جماليا عبر هذه التقنية، مقدما الأهم وهو ضياع مفاخر قريش ومعالمها على بكاء العين، فقال: (وهل يرجع ما فات ـ إن بكيت ـ البكاء)، بتقديم المفعول على الفاعل. ثم في البيتين الثالث والرابع عندما أراد وصف وقع هذه النكبات الواقعة عليه اعتمد على تقنية التقديم والتأخير التي لا تحلو إلا حينما يتعلق بها غرض فني يوحي به السياق، ويتعلق بطبيعة التجربة التي يعانيها الشاعر[35]. فنراه يقدم الفعل ومفعوله في صدر البيت الثالث (ترك الرأسَ) على الفاعل (نكباتٌ)، ثم يقوم بتقديم شبه الجملة (بها) على الفاعل (الأنباءُ) في عجزه. وفي صدر البيت الذي يليه يقدم الفاعل (مثلُ) ويؤخر الفعل (حلَّ) ويقدم شبه الجملة(مما أصابنا) على الخبر (أخلاءُ) في عملية تبادلية توحي بانزعاج الشاعر وارتباك مشاعره، فإنَّ "أيَّ تغيير في النظام التركيبي للجملة يترتب عليه بالضرورة تغيير الدلالة، وانتقالها من مستوى إلى مستوى آخر"[36]. وهذا الانزياح يخلق جمالية لا تتحقق فيما لو كانت الأبيات مرتبة ترتيبا نحويا، وهو ما يظهره هذا الشكل بين مستويي التركيب ببعديه المعياري والانزياحي:

المستوى المعياري = تركت نكباتٌ الرأس مني كالثغامة تسري الأنباء بها

المستوى الانزياحي= ترك الرأس كالثغامة مني نكباتٌ تسري بها الأنباء

المستوى المعياريي= حلّ مثلُ وقع القدوم بنا فالناس أخلاء مما أصابنا

المستوى الانزياحي= مثلُ وقع القدوم حلّ بنا فالناس مما أصابنا أخلاء

حيث يتحول البيتان إلى تركيبة جديدة من صنع الشاعر يبتعد فيها عن التركيب النفعي ليخلق لنا من وحي المشاعر والانفعالات تركيبا أدبيا يصور الواقع بأسلوب جمالي. فهذا التغيير الحاصل في بناء الجملة له دلالات معينة ولم يأت اعتباطا، يقول الجرجاني:"اعلم أنّه من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدا في بعض الكلام، وغير مفيد في بعض. وأن يعلل تارة بالعناية، وأخرى بأنَّه توسعة على الشاعر والكاتب، حتى تطرد لهذا قوافيه، ولذاك سجعه"[37].

حتى إذا ما تناول الشاعر الأسباب التي كانت وراء هذه النكبات التي حلّت به؛ يزداد غضبه وتوتره فتزداد بذلك التراكيب انزياحا، يقول متوعدا أهل الشام ومن معهم من بني أمية:

كيف نومي على الفراش ولما ** تشمل الشـــام غارة شعواءُ
تُذهلُ الشَّيخَ عن بنيه وتُبدي ** عن بُراها العقيلـــة العذراءُ
أنا عنكم بني أميَّـــة مزورْ ** رٌ وأنتم في نفســي الأعداءُ
إن قتلى بالطفِّ قد أوجعتني ** كان منـــكم لئن قتلتم شفاءُ

فنراه في البيت الأول يبدأ بحذف الفعل، ويسلط الاستفهام على المصدر، مستنكرا حصول النوم له والاستقرار قبل الأخذ بثأره من أهل الشام، يقول: (كيف ... نومي على الفراش)، أي: كيف يحدث نومي، فحذف الفعل يوهم بأن الشاعر إنما يسأل عن طريقة نومه على الفراش فقط، لكن السياق ينبئنا بأنه إنما أراد أن يستنكر حصول النوم منه أصلا، فأدوات الاستفهام تخرج في اللغة الفنية إلى معان ودلالات أخرى غير المعاني الحقيقية لها، تفهم من السياق، فهي لا تحمل "بذاتها دلالة بلاغية، فالسياق والقرائن هما اللذان يشكلان الأغراض البلاغية للخطاب الاستفهامي"[38]. وفي الشطر الثاني من البيت يقوم بحذف المضاف ليعطي الجملة معنى الإطلاق المحدث للمبالغة، فيقول: (ولما تشمل .... الشام غارة شعواء)، أي: أرض الشام، فحذف المضاف (أرض) كان وليد انفعال الشاعر الغاضب على الشام كله بما فيه من رجال ونساء وأرض وبناء، ولو عبّر بالمضاف لخفف من وطأة الغضب وعنف هذه الغارة الشعواء.

ولعل ما زاد في تأجيج حقد الشاعر على أهل الشام هذا الانزياح الحاصل في الجملة عبر تقديم المفعول به (الشام) على فاعله (غارةٌ). كذلك حصل هذا الانزياح في البيت الذي يليه بتقديم شبه الجملة على الخبر في

كلا الشطرين، حين يقول: (أنا عنكم بني أمية مزور وأنتم في نفسي الأعداء)، فتقديم الجار والمجرور هنا أوحى بمدى كره الشاعر لبني أمية وحقده عليهم، وهذا الشعور قد لا نحسه بهذا العمق فيما لو قال: أنا مزور عنكم بني أمية، وأنتم الأعداء في نفسي.

حتى إذا ما وصل الشاعر إلى البيت الأخير من القصيدة نفث ما عنده من كره دفعة واحدة بتمني حصول القتل والفناء لبني أمية، وحصول الشفاء لقلبه، ظهر ذلك بما وقع من انزياح داخل البيت متمثلا في حذف المضاف في قوله: (إن .... قتلى بالطَّف)، أي: وقوع قتلى، فانشغال الشاعر بأمر هؤلاء القتلى جعله يتناسى عملية القتل، وكذلك تقديم شبه الجملة على اسم كان في قوله: (كان منكم لئن قتلتم شفاءُ)، ولو أخره لما وصل لنا هذا الشعور المعبّأ بالنقمة والغضب. فآخر ما يتصوره الشاعر أن يتسبب بنو أمية في قتل الحسين وأهله في منطقة تسمى (الطّف). لقد طفح الكيل بالشاعر حتى لا يجد شفاء يريحه سوى قتل هؤلاء الأمويين، فأطلق بيته الأخير مليئا بالانفعالات والأوجاع فجاء معبرا عن ذلك أيما تعبير، بسبب ما اعتراه من انزياح. ولا يخفى أيضا مدى استفادة الشاعر من إدماج حادثة (كربلاء) في مشاهد القصيدة حتى يؤجج غضب الشيعة على بني أمية، ولعل المستفيد من ذلك سياسيا هم آل الزبير.

6. الخاتمة والنتائج:

أثبتت الدراسة أن اللغة بطبعها النفعي لا يتأتى لها إظهار جميع المعاني الكامنة في النفس، بالتالي، لا مناص من اللجوء إلى لغة انزياحية انفعالية يكون لها الأثر الكبير في إظهار ما يخفيه النص من إشارات وإيحاءات، وما يحمله المبدع من مشاعر وأحاسيس، أراد أن يشعرنا بها بعد أن عجزت لغته النفعية عن فعل ذلك. فهو لا يستطيع الإفصاح عن هذه الأشياء إلا عبر تركيب الكلمات تركيبا انفعاليا يفسح لها المجال في أن ترى النور. فالتوتر النفسي والانفعالي، هو الذي يفرض التوتر الانزياحي على التراكيب، فيتم بذلك خلق لغة مشابهة بحالة المبدع.

كما أثبتت الدراسة أنّ هذه القصيدة إنما هي كتلة من المشاعر والانفعالات الموحية بعاطفة صادقة يكنها الشاعر (ابن قيس الرقيات) للحزب الزبيري. فقد بدأها باكيا، وختمها باكيا، وما بين البكاءين ازدحمت القصيدة بشتى أنواع التراكيب الموشاة بأحاسيس الشاعر ومشاعره، وتعبّأت بقلقه وانفعالاته تجاه هذا

الحزب وفوزه بالخلافة، فلم تعد القصيدة عنده مجرد سلسلة لغويّة، وإنما تحوّلت إلى حالة من الحضور المتدفق، يلتقي أوّلها بآخرها، ويتردد صدى بعض عباراتها في بعضها الآخر، كما لا يمكن تصور الدلالة الحقيقية لكل جملة فيها إلا بمراعاة الدلالات السابقة لها واللاحقة، فتحولت بذلك القصيدة إلى وحدة كليّة مترابطة الأجزاء تعبر عن فكر الشاعر وميوله السياسي.

وأنَّ هذه القصيدة بما تحتويه من اتجاه سياسي وأيدلوجي؛ تنبئ أن الشعر السياسي عند العرب إنما نشأ مع تكون الأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية، حيث ظهرت حاجة كل حزب لجمع من الشعراء يحققون لهم الدعاية الإعلامية التي من شأنها أن تعينهم على تحقق النجاح. وأن هذا التنافس بين الشعراء في تحقيق الكسب السياسي أثرى الشعر العربي وأثّر فيه بتوجيهه نحو زاوية لم يطرقها من قبل، تتمثل في النشاط السياسي. فسلك الشعر بذلك طرقا شتى في تناوله لأمور السياسة التي دار حولها صراع الأحزاب، كالاعتماد على أسلوب البرهنة والاحتجاج، والعمل على نشر مبادئ الحزب والتنويه بها.

كما أشارت الدراسة إلى إمكانيّة الاستفادة من التاريخ والشخصيات التراثية في خلق اللغة الشعرية المؤثرة والهادفة، واستخدام الماضي بكل عظمته وعنفوانه وأمجاده في تحقيق مآرب الحاضر وتطلعاته وإنعاش الواقع المعيش، وإمكانية تقديم الماضي المجيد كصورة احتجاجية على الحاضر الخائر عبر الاتكاء على ما يفجره الموقف التاريخي من مشاعر ودلالات من شأنها أن تعمق المعنى المقصود.

الهوامش:

(1) القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية بيروت، 1978/م، ص273.

(2) الحوفي، أحمد، أدب السياسة في العصر الأموي، دار نهضة مصر، القاهرة، ط5، ص11.

(3) القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، ص276.

(4) ينظر: ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، ط9، ص85.

(5) ينظر : الشكعة، مصطفى، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، عالم الكتب، بيروت، 1979/م،ص87،88.

(6) الشكعة، مصطفى، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، ص69.

(7) الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، دار القلم، بيروت لبنان، ص27.

(8) ينظر: الهادي، صلاح الدين، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي القاهرة، ط1 1986/م، ص31.

(9) عبيد الله بن قيس بن شُرَيح، ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب. لقب بالرقيات؛ لأنه شبب بثلاث نسوة سمّين جميعا رقية، وله فيهن عدّة أشعار يُغنَّى فيها، كما لقب أيضا بشاعر قريش. ينظر: الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، كتاب الأغاني، مؤسسة جمّال للطباعة والنشر، بيروت، 5/ 73، 74، 75.

(10) الديوان: ص117، 118.

(11) نفسه: ص 132.

(12) الديوان: ص184.

(13) علّق طه حسين على هذا النوع من الغزل قائلا: "هذا الغزل الهجائي الذي يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه، خليق بالعناية فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التي استحدثها الشعراء". حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، 1962/م، 1/ 252.

(14) الديوان: ص122، 123.

(15) ينظر: الهادي، صلاح الدين، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ص218.

(16) القصيدة من بحر (الخفيف)، وعدد أبياتها ستون بيتا. ينظر الديوان: ص 87 إلى 96.

(17) القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، ص365.

(18) حسين، طه، حديث الأربعاء، 1/ 251.

(19) هذا التعريض كان شديد الوطأة على عبد الملك، فقد ذكَّر به الشاعر حين مدحه لاحقا، قائلا له: يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، مشيرا إلى مدحه لمصعب بالعدل والقوة. ينظر: الأصبهاني، كتاب الأغاني، 5/ 79.

(20) ينظر: القاضي، النعمان، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف بمصر، ص497.

(21) الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، ص263.

(22) ينظر: القاضي، النعمان، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، ص501.

(23) عيد، رجاء، لغة الشعر (قراءة في الشعر العربي الحديث)، منشأة المعارف الإسكندرية، 1985م/، ص87.

(24) ينظر: كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، ط1، 1986/م، ص182.

(25) ينظر: عتيق، عمر، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر عمَّان، ط1، 2012/م، ص216.

(26) ويليك، رينيه، و أوستن، وارين، نظرية الأدب، تر: محيي الدين صبحي، ط 2، بيروت 1981/م، ص189.

(27) طبل، حسن، علم المعاني، مكتبة الإيمان المنصورة، ط1، 1999/م، ص118.

(28) ينظر: عتيق، عمر عبد الهادي، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، ص197.

(29) عيد، رجاء، لغة الشعر، ص141.

(30) كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، ص196.

(31) ينظر: طبل، حسن، علم المعاني، ص92.

(32) الرواشدة، سامح، في الأفق الأدونيسي (دراسة في تحليل الخطاب الشعري)، أزمنة للنشر والتوزيع عمَّان، ط1، 2006م. ص78.

(33) الرواشدة، سامح، في الأفق الأدونيسي، ص91.

(34) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي للنشر، ط3، 1992/م، ص162.

(35) ينظر: طبل، حسن، علم المعاني، ص118.

(36) عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، دار نوبار للطباعة القاهرة، ط1، 1994/م، ص331.

(37) الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص110.

(38) عتيق، عمر عبد الهادي، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، ص180.

7. المصادر والمراجع:

ـ الأصبهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، كتاب الأغاني، مؤسسة جمّال للطباعة والنشر، بيروت.

ـ الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، الخانجي للنشر القاهرة، ط3 1992/م.

ـ حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف بمصر، 1962/م.

ـ الحوفي، أحمد، أدب السياسة في العصر الأموي، دار نهضة مصر، القاهرة.

ـ الرقيات، عبيد الله بن قيس، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تح د. محمد نجم. دار صادر. بيروت.

ـ الرواشدة، سامح، في الأفق الأدونيسي(دراسة في تحليل الخطاب الشعري)أزمنة للنشر، ط1، 2006/م.

ـ الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، دار القلم، بيروت لبنان.

ـ الشكعة، مصطفى، رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية، عالم الكتب، بيروت، 1979/م.

ـ ضيف، شوقي، التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، ط9.

ـ طبل، حسن، علم المعاني، مكتبة الإيمان المنصورة، ط1، 1999/م.

ـ عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، دار نوبار للطباعة القاهرة، 1994/م.

ـ عتيق، عمر الهادي، علم البلاغة بين الأصالة والمعاصرة، دار أسامة للنشر، ط1، 2012/م.

ـ عيد، رجاء، لغة الشعر (قراءة في الشعر العربي الحديث)، منشأة المعارف الإسكندرية، 1985/م.

ـ القاضي، النعمان، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، دار المعارف بمصر.

ـ القط، عبد القادر، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، 1978/م.

ـ كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، تر: محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، ط1، 1986/م.

ـ الهادي، صلاح الدين، اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1986/م.

ـ ويليك، رينيه. أوستن، وارين، نظرية الأدب، تر: محي الدين صبحي، ط2، بيروت، 1981/م.